

السيرة العطرة

للووزير العادل يَحْيَى بن مُحَمَّد بنِ هُبَيْرَةَ

(٤٩٩ - ٥٦٠)

من كتاب ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب

تقديم وتهذيب:

أ.د بدر ملك د. لطيفة الكندري



٢	المقدمة.....
٣	مؤلفاته.....
٤	بداياته.....
٤	ألقابه.....
٥	سيرته الحسنة.....
٥	الاستنباطات القرآنية الدقيقة.....
٩	نظرات في الحديث النبوي.....
١٠	روائع تربوية.....
١١	سورة الضحى.....
١٢	شعر ابن هبيرة.....

المقدمة

هو الوزير العالم العادل، الملقب بعون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة. ترك ابن هبيرة عددا كبيرا من الطلاب منهم الإمام عبدالرحمن بن الجوزي . كانت له معرفة واسعة بالأدب، وعلوم اللغة، والعروض، وصنف في تلك العلوم، وكان متمسكاً بالسنة، وسير السلف حتى أصبح من كبار علماء الإسلام. قال عنه الذهبي سير أعلام النبلاء: كان "جزل الرأي، باراً بالعلماء، مكيباً مع أعباء الوزارة على العلم وتدوينه، كبير الشأن، حسنة الزمان" وقال عنه الذهبي أيضا في تاريخ الإسلام "وكان من خيار الوزراء أدباً، وصلاحاً، ورأياً، وتواضعاً لأهل العلم وبراً بهم".

ورد في الموسوعة العربية (٢٠٠٨م) كان أبوه رجلا فقيرا يعمل في حراثة الأرض، إلا أنه كان يحث ولده على تحصيل العلم وإدراك الفوائد، فأخذ يتردد وهو صغير إلى بغداد ويحضر مجالس العلم فيها ثم ما لبث أبوه أن مات مخلفا ولده يكابد الفاقة والشظف العيش، فاضطر إلى العمل والاشتغال في شتى الخدمات طلبا للرزق وسترا للعوز، ومع ذلك لم تفتر هكته في تلقي العلم ومجالسة الفقهاء والأدباء" (ج ٢٢، ص ٤٨٣) حتى بلغ من العلم مكانة رفيعة. عاش فقيرا وصار وزيرا هكذا احترم المجتمع العقول الفذة بعيدا عن التزلف والمداهنة. مجتمع هذا حاله يستحق البقاء والنماء لأن تكافؤ الفرص أساس التميز.

إن ابن هبيرة هو امتداد لشخصية فذة في التاريخ الإسلامي ألا وهي شخصية نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢م) باني المدارس النظامية والوزير القوي الذي جمع

بين العلم والسياسة وصرف كل أوقاته للعناية ببناء المدارس وتكريم العلماء وهذه الشخصيات ركائز النهضة.

ابن هبيرة نموذج ناجح للعالم، السياسي، المرابي.

ابن هبيرة نموذج ناجح للفقهاء الذي يقدر وجهات نظر العلماء ويعرف قدر المذاهب الفقهية دون تعصب.

ابن هبيرة نموذج ناجح للعالم الذي يقدر عملية تقييد العلم بالكتابة.

ابن هبيرة نموذج ناجح للأمانة في النقل والدقة في البيان.

في هذه الترجمة الموجزة استندنا على كتاب ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي حيث أنه أورد الكثير من لطائف يَحْيَى بن هبيرة فقمنا بتلخيصها وترتيبها والإضافة إليها في بعض الأحيان. نأمل أن تكون هذه الأوراق من تراثنا التربوي مادة ثرية تيسر الطريق للسائرين ممن يودون الاعتراف من معين التراث الأصيل في زمن أحوج ما نكون فيه إلى هوية، وقدوة، لإتمام مسيرة الثقافة العربية الإسلامية التي بلا شك ستستأنف مسيرتها الجادة وتتغلب على كل المحبطات إذا فقهنا أهمية العلم والعمل في تراثنا التربوي.

مؤلفاته

وصنف الوزير أبو المظفر يَحْيَى كتابا شهيرا في الفقه وهو كتاب (الإفصاح عن معاني الصّحاح) شرح فيه (صحيح البخاري ومسلم) في عشر مجلدات. يشتمل على تسعة عشر كتابا، ولما بلغ فيه إلى حديث " مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ " شرح الحديث، وتكلم على معنى الفقه، وآل به الكلام إلى أن ذكر مسائل الفقه المتفق عليها، والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين.

وقد أفرده الناس من الكتاب، وجعلوه مجلدة مفردة، وسموه بكتاب "الإفصاح" وهو قطعة منه، وهذا الكتاب صنفه في ولايته الوزارة، واعتنى به وجمع عليه أئمة

المذاهب، وأوفدهم من البلدان إليه لأجله، بحيث إنه أنفق على ذلك مائة ألف دينار، وثلاثة عشر ألف دينار، وحدث به، واجتمع الخلق العظيم لسماعه عليه. كتب به نسخة لخزانة المستنجد. وبعث ملوك الأطراف ووزرائها وعلمائها، واستنسخوا لهم به نسخًا، ونقلوها إليهم. واشتغل به الفقهاء في ذلك الزمان على اختلاف مذاهبهم، يدرسون منه في المدارس والمساجد، ويعيده المعيدون، ويحفظ منه الفقهاء.

وصنف يَحْيَى في النحو كتابًا سماه "المقتصد"، وعرضه على أئمة الأدب في عصره. واختصر كتاب "إصلاح المنطق" لابن السكيت. وصنف كتاب "العبادات الخمس" على مذهب الإمام أحمد. وله أرجوزة في المقصور والممدود، وأرجوزة في علم الخط.

بداياته

وكان يَحْيَى بن هبيرة في أول أمره فقيرًا، فاحتاج إلى العمل فاشتغل في الأعمال السلطانية زمن العباسيين، فولي أعمالاً متعددة، ثم جعله المقتفي لأمر الله يتقلد المزيد من المهام الإدارية. ثم ظهر للمقتفي كفاءته وشهامته، وأمانته ونصحه، وقيامه في مهام الملك، فاستدعاه المقتفي سنة ٥٤٤ هـ إلى داره، وقلده الوزارة، وخلع عليه وخرج في أبهة عظيمة. ومشى أرباب الدولة وأصحاب المناصب كلهم بين يديه، وهو راكب إلى الإيوان في الديوان. وحضر القراء والشعراء، وكان يومًا مشهودًا.

ألقابه

نعت يَحْيَى بن هبيرة بعدة نعوت تدل على حفاوة الناس به، وثناء الأمراء عليه، وفخر العلماء فيه.

ولقد أطلقوا عليه الوزير العالم العادل، وعون الدين، وجلال الإسلام، صفي الإمام، شرف الأنام، معز الدولة، مجير الملة، عماد الأمة، تاج الملوك والسلاطين، صدر الشرق والغرب، سيد الوزراء، ظهير أمير المؤمنين. وكان الوزير قبل وزارته يلقب بجلال الدين.

سيرته الحسنة

أقام ابن هبيرة صرح العدل في وزارته فكانت سياسته مثالا حسنا للممالك الأخرى، ورعى لأهل الفضل والمعارف حقهم، حتى صارت دولته مشرعا للكرم، ومستترحا لآمال الأمم، فلاحت بها من العلماء شمس، وارتاحت فيها للطلبة بالعلوم نفوس، ولم تخل أيامه ومجالسه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة ومحاضرة، إلا أوقات عطلها من ذلك النظام، وأوقعها إما على صلاة وصيام، أو على تصنيف، وجمع وتأليف بحيث صنف عدة كتب.

ولما ولي الوزير أبو المظفر يَحْيَى رحمه الله الوزارة بالغ في تقريب خيار الناس من الفقهاء والمحدثين والصالحين، واجتهد في إكرامهم وإيصال النفع إليهم. ولقد قال مرة في وزارته: واللّه لقد كنت أسأل الله تعالى الدنيا لأخدم بما يرزقنيه منها العلم وأهله.

كان يَحْيَى بن هبيرة عفيفا في ولايته، محمودا في وزارته، كثير البر والمعروف، وقراءة القرآن، والصلاة والصيام، يحب أهل العلم، ويكثر مجالستهم ومذاكرتهم، جميل المذهب.

ولقد بلغ به من شدة الورع بحيث أحضر له كتاب من وقف المدرسة النظامية، ليقرأ عنده. فقال: قد بلغني أن الواقف شرط في كتاب الوقف: أن لا يخرج شيء من كتب الوقف عن المدرسة، وأمر برده. فقيل له: إن هذا شيء ما تحققناه بحاجة للتأكيد. فقال: أليس قد قيل. ولم يملكهم من قراءته، وحثهم على إعادته.

الاستنباطات القرآنية الدقيقة

وللوزير يَحْيَى بن هبيرة من الكلام الحسن والفوائد المستحسنة والاستنباطات الدقيقة من كلام الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ما هو كثير جداً. قال يَحْيَى بن هبيرة في قوله تعالى: " فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ " (البقرة الآية ١٠)، المريض يجد الطعوم على خلاف ما هي عليه، فيرى الحامض حلواً، والحلو مرّاً وكذلك هؤلاء يرون الحق باطلاً، والباطل حقاً.

الآيات اللواتي في الأنعام " قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " (الأنعام الآية ١٥١) محكمات، وقد اتفقت عليها الشرائع، إنما قال في الآية الأولى: " لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " وفي الثانية: " لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (١٥٢) " وفي الثالثة: " لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (١٥٣) " لأن كل آية يليق بها ذلك، فإنه قال في الأولى: " أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا " والعقل يشهد أن الخالق لا شريك له، ويدعو العقل إلى بر الوالدين، ونهى عن قتل الولد، وإتيان الفواحش لأن الإنسان يغار من الفاحشة على ابنته وأخته، فكذلك هو، ينبغي أن يجتنبها، وكذلك قتل النفس، فلما لاقت هذه الأمور بالعقل، قال: " لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " ولما قال في الآية الثانية: " وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ " والمعنى: اذكر لو هلكت فصار ولدك يتيماً، واذكر عند ورثتك، لو كنت الموروث له، واذكر كيف تحب العدل لك في القول. فاعدل في حق غيرك، وكما لا تؤثر أن يخان عهدك فلا تخن، فلاق بهذه الأشياء التذكر، فقال " لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " (١٥٢) " وقال في الثالثة: " وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ "، فلاق بذلك اتقاء الزلل، فلذلك قال: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " (١٥٣) .

وقال يَحْيَىٰ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" (التوبة الآية ٥١) لم يقل سبحانه: ما كتب علينا لأنه أمر يتعلق بالمؤمن، ولا يصيب المؤمن شيء إلا وهو له، إن كان خيراً فهو له في العاجل، وإن كان شراً فهو ثواب له في الآجل.

وقال يَحْيَىٰ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: " وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنْ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا " (الكهف الآية ٣٩)، ما قال: ما شاء الله كان ولا يكون، بل أطلق اللفظ ليعم الماضي والمستقبل والراهن.

وقال يَحْيَىٰ: وتدبرت قوله تعالى: " لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ " فرأيت لها ثلاثة أوجه. أحدها: أن قائلها يتبرأ من حوله وقوته، ويسلم الأمر إلى مالكه. والثاني: أنه يعلم أن لا قوة للمخلوقين إلا بالله، فلا يخاف منهم إذ قواهم لا تكون إلا بالله، وذلك يوجب الخوف من الله وحده.

والثالث: أنه رد على الفلاسفة والطبائعيين الذين يدعون القوى في الأشياء بطبيعتها، فإن هذه الكلمة بينت أن القوي لا يكون إلا بالله. وقال في قوله تعالى: "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا" (طه: ١٥)، قال: المعنى إني قد أظهرتها حين أعلمت بكونها، لكن قاربت أن أخفيها بتكذيب المشرك بها، وغفلة المؤمن عنها، فالمشرك لا يصدق كونها، والمؤمن يهمل الاستعداد لها.

وقال يَحْيَىٰ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: " إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ " (الأنبياء الآية ١١٠)، المعنى: أنه إذا اشتدت الأصوات وتغالبت فإنها حالة لا يسمع فيها الإنسان. والله عز وجل يسمع كلام كل شخص بعينه، ولا يشغله سمع عن سمع.

وعن قوله سبحانه : " قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ " (الأنبياء الآية ١١٢)، قال يَحْيَى: المراد منه: كن أنت أيها القائل على الحق ليمكنك أن تقول: احكم بالحق، لأن المبطل لا يمكنه أن يقول: احكم بالحق.

وقال في قوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا " (الفرقان الآية ٢٠)، فهو يدل على فضل هداية الخلق بالعلم، ويبين شرف العالم على الزاهد المنقطع فإن النبي صلى الله عليه وسلم كالطبيب، والطبيب يكون عند المرضى، فلو انقطع عنهم هلكوا.

وقال في قوله تعالى: " وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ " (النمل الآية ١٩)، قال: هذا من تمام برّ الوالدين. كأن هذا الولد خاف أن يكون والداه قصرا في شكر الرب عز وجل، فسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم به عليه وعليهما ليقوم بما وجب عليهما من الشكر إن كانا قصرا.

وقال في قوله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ { ٨٠ } " (سورة القصص) ، إيثار ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء، فمن كان هكذا فهو عالم. ومن آثر العاجل على الآجل فليس بعالم.

وقال يَحْيَى في قوله تعالى: " مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) " (القصص) إنما ذكر السماع عند ذكر الليل والإبصار عند ذكر النهار لأن الإنسان يدرك سمعه في الليل

أكثر من إدراكه بالنهار، ويرى بالنهار أكثر مما يرى بالليل. قال المبرد: سلطان السمع في الليل، وسلطان البصر في النهار.

وفي قوله تعالى "وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ" (يس الآية ٢٠) و قوله تعالى: " وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ" (القصص الآية ٢٠) ، قال يَحْيَى بن هبيرة: فرأيت الفائدة في تقديم ذكر الرجل وتأخيره: أن ذكر الأوصاف قبل ذكر الموصوف أبلغ في المدح من تقديم ذكره على وصفه فإن الناس يقولون: الرئيس الأجل فلان، فنظرت فإذا الذي زيد في مدحه وهو صاحب يس أمر بالمعروف وأعان الرسل وصبر على القتل، والآخر إنما حذر موسى من القتل، فسلم موسى بقبوله مشورته. فالأول هو الأمر بالمعروف، والثاني هو المنكر، والثاني هو ناصح الأمر بالمعروف. فاستحق الأول الزيادة. ثم تأملت ذكر أقصى المدينة، فإذا الرجلان جاءا من بُعد في الأمر بالمعروف، ولم يتقاعدا لبعد الطريق.

نظرات في الحديث النبوي

قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ" (رواه الترمذي) وفي رواية البخاري "إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فَتَحَّتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَسُلِّسَتْ الشَّيَاطِينُ" قال يَحْيَى بن هبيرة: إن الشياطين للعاصي في غير رمضان كالعكاز يقول: سؤل لي، وغرني. فإذا سلسل الشيطان وتم تقييده بالسلاسل قلّ عذر العاصي فلا يلوم غيره.

وقال في حديث عائشة رضي الله عنها "كان أكثر صوم رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شعبان" (رواه أحمد في مسنده). ما أرى هذا إلا على وجه الرياضة

لأن الإنسان إذا هجم بنفسه على أمر لم يتعوده صعب عليه، فدرج نفسه بالصوم في شعبان لأجل رمضان.

وقال في قوله صلى الله عليه وسلم: "أول زمرة تدخل الجنة من أمتي وجوهمهم كالقمر ليلة البدر" قال: إنما لم يقل كالشمس لأن نور الشمس يؤثر في عيون الناظرين إليها، فلا يتمكنون من النظر، والجنة دار لذة وطيب عيش، فلو أشبهت وجوهمهم نور الشمس لم يتمكن أحد منهم أن ينظر الآخر.

روائع تربوية

وقال يَحْيَى بن هبيرة: يحصل العلم بالمحافظة على ثلاثة أشياء: أحدها: العمل به، فإن من كلف نفسه التكلم بالعربية، دعاه ذلك إلى حفظ النحو، ومن سأل عن المشكلات ليعمل فيها بمقتضى الشرع تعلم. والثاني: التعليم، فإنه إذا علم الناس كان أدعى إلى تعليمه. الثالث: التصنيف، فإنه يخرج به إلى البحث، ولا يتمكن من التصنيف من لم يدرك غور ذلك العلم الذي صنف فيه.

وقال يَحْيَى لبعض من يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام، وأولى الأمور ستر العيوب. وقال: نظر العامل إلى عمله بعين الثقة به في باب النجاة، أضر على العصاة من تفريطهم، وقال: لولا الظلم الجائر ما حصلت الشهادة للشهيد، ولولا أهل المعاصي، ما بان بلبوى الصابر في الأمر بالمعروف، ولو كان المجرمون ضعفاء لقهروا، فلم يحصل ذلك المعنى.

وقال: احذروا مصارع العقول، عند التهاب الشهوات. قال يَحْيَى: العجب ممن يخاصم الأقدار ولا يخاصم نفسه، فيقول: قضى عليّ، وعاقبني! ويحك، قل لنا كيف تحب أن يكون الأمر؟ أتختار أن تخلق أعمى لا تنظر إلى المستحسن. قال: لا. قلنا: أفتحب أن تخلق معدوم الحس؟ قال: لا. قلنا:

أختار أن ترد عن المعاصي قهراً. قال: لا. قلنا: أفتؤثر أن تطلق فيها من غير حجر؟ فلا تغضب إذاً إن أطلق غيرك في أحواتك وبناتك. فأما أن تغضب لذلك الفعل من غيرك في حرمك، وتختار أن تفعله في حرم غيرك فهذا في غاية الجور. فإذا جعل لك الطريق إلى مرادك بكلمة هي عقد النكاح، أو عوضت عما منعت عنه من جنسه ووعدت الأجر على الصبر فهذا غاية العدل. فإن زلت في معصية فقد جعل لك طريق النجاة بالتوبة.

وقال يحيى عن أنواع الشر التي لا نعلمها: إن الإنسان يبلغه أن الرجل قد عمل الشر فيرضى به، أو يتمنى أن يعمل مثله، فهذا شر ما لم يعمل، والرجل قد لا يشرب الخمر، فيعجب بنفسه كيف لا يشرب، فيكون العجب بترك الذنب شر ما لم يعمل.

سورة الضحى

وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١).

وقال يحيى بن هبيرة في سورة الضحى: لما توالى فيها قسمان، وجوابان مثبتان، وجوابان نافيان، فالقسمان: " وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) " والجوابان النافيان: " مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) "، والجوابان المثبتان: " وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) " وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) " ثم قرر بنعم ثلاث، وأتبعهن بوصايا ثلاث: كل واحدة من الوصايا شكر النعمة التي قبولت بها.

فإحداهن: " أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) " وجوابها: " فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) ".

والثانية: " وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) " فقابلهما بقوله: " وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) ".

وهذا لأن السائل ضال يبغى الهدى.

والثالثة: " وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) " فقابلهأ بقوله: " وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ".
وإنما قال: " وَمَا قَلَى " ولم يقل: وما قلاك لأن القلى بغض بعد حب، وذلك لا
يجوز على الله تعالى. والمعنى: وما قلى أحداً قط، ثم قال: " وَللآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى
(٤) " ولم يقل: خير على الإطلاق. وإنما المعنى خير لك ولمن آمن بك.
وقوله: " فَأَوَى " ولم يقل: فأواك، لأنه أراد: آوى بك إلى يوم القيامة.

شعر ابن هبيرة

وله شعر كثير حسن في الزهد وغيره من مثل قوله:

يا أيها الناس إني ناصح لكم فعوا كلامي فإني ذو تجاريب
لا تلهينكم الدنيا بزهرتها فما تدوم على حسن ولا طيب
وقوله:

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه وأراه أسهل ما عليك يضيع

وقوله:

الحمد لله هذا العين لا الأثر فما الذي باتباع الحق ينتظر
وقت يفوت وأشغال معوّقة وضعف عزم، ودار شأنها الغير
والناس ركضاً إلى مهوى مصارعهم وليس عندهم من ركضهم خبر
تسعى بهم خادعات من سلامتهم فيبلغون إلى المهوى وما شعروا
والجهل أصل فساد الناس كلهم والجهل أصل عليه يخلق البشر
وإنما العلم عن ذي الرشد يطرحه كما عن الطفل يوماً يطرح السرر
وأصعب الداء داء لا يحس به كالدق يضعف حساً وهو يستعر
وإنما لم يحس المرء موقعها لأن أجزاءه قد عمها الضرر

وقال:

كل من جاء بدين غريب غير دين الإسلام فهو

كذوب

وإذا عالم تكلف في القول بلا سنة فذاك المريب

وقال يَحْيَى:

ما لنا قط غير ما شرع الله به يعبد الإله الكريم

فتمسك بالشرع واعلم بأن الـ حق فيه وما سواه سموم

ومما يذكر من شعر الوزير يَحْيَى رحمه الله تعالى:

تمسك بتقوى الله فالمرء لا يبقى وكل امرئ ما قدمت يده يلقى

ولا تظلمن الناس ما في أيديهم ولا تذكرن إفكاً ولا تحسدن خلقاً

تعود فإفعال الخير جمعاً فكلما تعود الإنسان صار له خلقاً

رحيل الروح

كان الوزير يتأسف على ما مضى من زمانه، ويندم على ما دخل فيه. ثم صار يسأل الله عز وجل الشهادة.

وكان الوزير يَحْيَى في أتم عافية حينما قرعت النواذب بابه، وكدرت أحواله، ففي ليلة من الليالي شعر بألم في معدته ثم قاء فحضر طبيب كان يخدمه، فسقاه شيئاً، فيقال: إنه سمه فمات يَحْيَى مسموماً. وحملت جنازة الوزير يَحْيَى إلى جامع القصر وصلى عليه الناس ثم حمل إلى مدرسته التي أنشأها بباب البصرة فدفن بها وغلقت يومئذ أسواق بغداد وخرج جمع غفير من المحبين لوداعه، وكثر البكاء عليه رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وللأسف الشديد جرى بلاءٌ عظيمٌ لبني هبيرة بعد وفاة يَحْيَى بن هبيرة حتى قال الذهبي في سير أعلام النبلاء وقد اضطرَّ ورثة الوزير ابن هبيرة إلى بيع ثيابهم وأثاثهم، وبيعت كتب الوزير الموقوفة على مدرسته بأسعار زهيدة.

